

**الخطاب المؤدلج وظائفه وآلية نقده وتقويمه**

**"الخطاب الدعوي نموذجاً"**

**إعداد**

**د/ رزق عبدالجواد رزق مصطفي الجعيدي**

**محاضر بجامعة طبرق - كلية التربية ـ قسم الدراسات الإسلامية**

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**الملخص:**

اشتغلت هذه الورقة البحثية على نقطة محددة في الخطاب بصفة عامة لإمكانية تطبيقها على الخطاب الديني الدعوي . فكانت وظيفية الخطاب هى منطلق فهمه وتصنيفه وتحديد خصائصه من جهة ونقده وتقويمه من جهة أخري . وقد اتجهت الدراسة نحو التحليل لإمكانية فك تعقيدات الخطاب المؤدلج وإدراك آلية تمثلاته وإيحاءاته , ومن ثم إعادة تركيبه وفق منهجية علمية تخلصه من الإيديولوجيا وتبقيه في حيز الفكر المتحرر من أغلالها وأسرها . ولقد جاء الخطاب الدعوي هدفا وأساسا لتطبيق توصيات ونتائج البحث عليه حفظا له من الانحراف عن الجادة .

الكلمات المفتاحية : التمثلات – الوظيفية – الإيديولوجيا

**Abstract:**

This research paper targeted a specific point in discourse in general for the possibility of applying it to religious discourse . the function of the discourse was throught understanding it , classifying it , and defining its characteristics on one hand , and criticizing and evaluating it on the other hand .Thy study focused on an analysis of the possibility of unraveling the complexities of ideological discourse and understanding the mechanism of its representations and implications . then reconstruct it according to a scientific methodology that liberate it of ideology and keeps it in space of freed thought from its shackles and captivity . the advocacy speech aimed at implementing the recommendations and results of the research in order to avoid deviation from the truth .

**مقدمة:**

الحمد لله الذى له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين . وبعد :

فقد أصبح الخطاب محور اهتمام العديد من الدراسات ، ومجالاً حيوياً للتحليل لما يحمل من أهمية باعتباره أداة فاعلة في الاتجاهات الفكرية والثقافية ، وكونه أحد أهم أنظمة الدلالة التي تتوسط بين الذات والموضوع او بين العقل والنص .ويأتي الخطاب الدينى على رأس هذا الامر لما له من ارتباط بالمقدس , وبما يحمله من دلالة الحق والباطل والهدي والضلال ، ولهذه الأهمية التي يحظى بها الخطاب الديني كان واجباً أن نكشف الزيف الذى يتلبسه عندما يُختزل في إيديولوجيا ضيقة مغلقة تدعي وهم امتلاك اليقين وحصرية التأويل والتفسير .

**أهمية البحث وأسباب اختياره :**

يعكس الخطاب بصفة عامة حالة الفكر وطبيعة التصور والموقف من الآخر , كما أنه أداة لكل التوجهات المجتمعية والثقافية . وعلى مستوي الخطاب الديني فإنه يحظي بما هو أكثر تأثيراً لارتباطه بالنص المقدس , ونظرا لحالة التماهي الزائفة بين الخطاب - بمقولاته البشرية وتأويلاته الاجتهادية ومحدوديته الزمانية ونسبيته - وبين النص المقدس , واعتبار الخطاب ظلاً له وناطقاً حصريا باسمه وإلغاء سمة البشرية عنه والنسبية , واعتباره مقدساً كما الأصل المنبثق عنه ، كان ضروريا كشف حقيقة الأدلجة التي يتشح بها الخطاب الديني عندما تتلبسه الإيديولوجيا وتحركه كأداة طيعية لأهدافها .

**أسئلة الدراسة :**

تشتمل الدراسة على العديد من الأسئلة ، ولعل اكثرها إلحاحا واوضحها طرحا تلك الأسئلة المتعلقة بحقيقة التئام الخطاب الدينيى على نزعة إيديولوجية , تتدني به عن مرتبة الاجتهاد الحر والفكر المستقيم وتلقى به في براثن الانحياز المسبق والنمطية الجامدة لحساب إيديولوجيا بعينها لها تصورات مغلقة وتمثلات معوجة .

ولهذا تكمن أهم أسئلة الدراسة في نقطة محوريه حول أدلجة الخطاب : هل يتلبس الخطاب الدينى بالإيديولوجيا ؟ وما وظائفه ؟ وكيف ننتقده ونقومه ؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تقع داخل النقطة المحورية المشار إليها .

**إشكالية البحث :**

لهذه الدراسة عدة إشكاليات تتمثل في مدي إمكانية التعاطي مع الدراسات الفكرية الفلسفية في تحليل الآليات العقلية الإدراكية والتمثلات الذهنية بغية الاستفادة الدعوية وتكوين نماذج تحليلية أكثر قدرة على فهم النتاج الفكري والنشاط الدعوي الإسلامي .

ومن جهة أخرى تعود إشكالية البحث إلى فهم عملية تمثيل الواقع في العقل ، ومدي مساهمة الخطاب المؤدلج في هذه الصورة الذهنية ، هل يتم ذلك وفق الحقيقة الواقعية أم النوازع الإيديولوجية ؟ تلك النوازع التي تحول بين الانتقال السليم للحقائق وتمثيلها في الذهن على نحو محايد .

**منهج الدراسة :**

اتجهت الدراسة نحو المنهج التحليل باعتباره أوفي المناهج لتحقيق الغرض البحثي ، لما يعتمده من أسلوب التفكيك والتركيب والنقد والتقويم ، كما أسهم هذا المنهج في عملية التفسير والنقد والاستنباط بدرجات متفاوتة خلال الدراسة .

**أهداف الدراسة :**

اعتنت الدراسة بمحاولة بلوغ هدف أساسي متمثلاً في تحليل الخطاب الديني عندما يتلبس بالإيديولوجيا ،وإيضاح كيف يختزل النص في تمثلات مؤدلجة ، ومن ثم رسم ملامح هذا الخطاب وخصائصه ، وتقديم خطة لنقده وتقويمه .

**خطة الدراسة :**

تعمل الورقة البحثية على مقاربة الموضوع من خلال ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : ماهية الخطاب المؤدلج .

المبحث الثاني : البعد الوظيفي للخطاب المؤدلج .

المبحث الثالث : نقد الخطاب المؤدلج وتقويمه .

المبحث الرابع : الخطاب الديني الدعوي نموذجا .

**التحليل المفاهيمي :**

تتسم المفاهيم في العوم الإنسانية بنسبية المنظور وتنوع تأويلاتها وتفسيرها ، وعلى الرغم من أن ذلك عام في تلك المفاهيم إلا أن من بينها ما هو ألصق بهذه الصفات عمقاً وتركيزاً ومن ذلك مفهوم الإيديولوجيا[[1]](#footnote-1) الذى هو محور الدراسة من حيث تأثيره في الخطاب وتوظيفه لأغراضها ومصالحها . و تستند البنية المفاهيمية لهذه الورقة البحثية على عدة مفاهيم محورية هى عصب فكرته .

**الوظيفية :**

تحمل الوظيفة في المعجم معني ( التقدير والتعيين والإلزام ) ، وقال الأصمعي : ( جاءت الإبل على وظيف واحد[[2]](#footnote-2) إذا تبع بعضها بعضاً ، كل بعير رأسه عند ذنب صاحبه ) (ابن منظور : مادة ( و ظ ف ) 6 /4869 ) ، وتستعمل الوظيفية في اللسانيات لتعبر عن التمييز الدلالي للكلمة ، ودراسة الروابط اللغوية ( الأصوات ، التراكيب ) بالوظيفة التبليغية , والمنهج الوظيفي اللغوي يعني بدراسة الطريقة التي تنتظم بها العناصر اللغوية داخل المنظومة الصوتية التي تشكل بنية لغوية ( بوقرة . نعمان 2009 .ص146) ولسنا معنيين هنا بالوظيفية اللسانية التي تركز على المنظومة الصوتية والبنية اللغوية . بل نستخدم المفهوم بالمعني العام الذي يشير إلى الخطوات المنهجية لأداء دور محدد في إطار بنية معرفية موجهة .

**التمثيل :**

التمثيل هو عملية عقلية و نشاط ذهني يتم من خلالها تصور الحقائق والوقائع في الذهن كي يتم إدراكها وتخيلها والحكم عليها ، وما ينتج عن هذه العملية الذهنية من صور حاصلة في النفس يعرف بالظواهر العقلية التي تمثل في محصلتها المعرفة . والتمثل له ركنان : موضوع متمثَل وذات مدركة ( متمثِلة ) وتحصل المعرفة من ناتج التفاعل بينهما ، فالمعرفة ليست سوي تمثلات عقلية عن الحقائق الواقعية او القضايا الثقافية .

**الإيديولوجيا :**

إن لفظة إيديولوجيا " لغويا تعني في أصلها الفرنسي علم الأفكار ، حيث إن مصطلح الإيديولوجيا مركب من مقطعين: Idea و معناها فكرة، و Logos و معناها علم، لتكون ترجمته اللغوية الدقيقة هي" علم دراسة الأفكار "وكما نوهت فإن هذا المعني ليس معبرا عن دلالات المفهوم المتنوعة بتنوع حقوله البحثية وتطوراته التاريخية . بما جعل استخدام المفهوم بمعناه اللغوي محض انقطاع عن معناه ودلالته.

وسوف نعتمد هذه الورقة تعريفا إجرائيا يساهم في بلورة المقصد البحثي[[3]](#footnote-3) ، فالإيديولوجيا في رؤية "جاكوب باريون Beryon " : تطلق على تلك الآراء التي تدعي لنفسها احتكار الحقيقة، فتدمغ بالخطأ ماعداها من الآراء و تحاربها. و هكذا يتنازع الإيديولوجيون فيما بينهم و يحاربون بعضهم بعضا حتى يرى الواحد منهم من يخالفه الرأي و النظر خصمه و عدوه ( باريون . باريون 1971 : ص10 ) .

 ويأتي تعليق "جيمس بيرنهام Burnham Jams" في كتابه حول الليبرالية الغربية تاكيد هذا المعني حيث يقول: " عندما يتراءى لمن يعتقد في أفكار ما عن الإنسان والتاريخ أنها واضحة بذاتها أو صحيحة تماماً، بحيث يرى من يعارضها غبياً أو خبيثاً، فإن هذه الحالة بالتأكيد هي الإيديولوجيا أو التفكير الإيديولوجي." (James Burnham 1965 ص p108 ) .

ويعرف ماركس الإيديولوجيا في النهاية بانها ما ليس واقعاً (ريكور . بول : 2002 ص8 ) ، وهو يعتبر ان الصراع الطبقى هو الذى يؤدي لذلك حيث تعمل الطبقة المسيطرة على خدمة مصالحها بطرق تبريرية مشوهة للواقع بحيث تصبح القناعات الناتجة عن تحكمها إيديولوجيا لا تمت للواقع الحقيقي بصلة .

وقد يستعمل مفهوم الإيديولوجيا معبرا عن ( المجتمع في دور من ادواره التاريخية. إننا ندرك المجتمع حينئذ ككل .يتفق جميع أعضائه في الولاء لقيم مشتركة ويستعملون منطقاً واحداً ) (العروي. عبدالله : 2012 ص12 ).

إذا اقتصرنا في التعامل مع هذه المفهوم من منطلق لغوي ـ كما يتهيأ للبعض استخدامه بدلالته اللغوية البسيطة ـ فإننا أبعد ما نكون عن حقيقته ، كون هذا المفهوم غادر جذره اللغوي عبر مسيرته التطورية ، ولم يكن تطوره تراكمياً في اتجاه واحد بحيث يرسخ اصطلاحا سائدا بقدر ما كان التطور تشعبا في اتجاهات تفسيرية ورؤي فلسفية عدة تعددت بتنوع نماذجها المعرفية تعريفات المفهوم لدرجة يجعل من غير الممكن مجرد تتبعها وإحصائها .

**المبحث الأول : ماهية الخطاب المؤدلج**

من الضروري التأكيد على الكيفية التي تؤثر بها الإيديولوجيا في الوعي ، بحيث تصبح عملية التمثيل الذهني للواقع غير مستقلة ، ومن خلال التاثير الأيديولوجيا ينتقل الواقع للذهن بتصور مؤدلج لا يمثل الحقيقة الكائنة بل يصبح تصورا من نوع خاص ،محكوم بدوافع ورؤى وأنماط وانتماءات ومقولات تعمل كوسيط بين العقل والواقع .

أيضا كذلك من الواجب التعرف على خصائص الخطاب المؤدلج الذى لا يختلف في خصائصه عن الإيديولوجيا إذ يصبح الخطاب المؤدلج أحد اصدق مظاهر التعبير عنها .

**أولا : تاثير الإيديولوجيا في منهج الفكروالنظر والإدراك**

إذا كنا نفهم الإدراك الواعي بالواقع على أنه نتيجة تفاعل بين الذات الواعية والموضوع في إطار عملية تفاعلية قائمة على الاستدلال والبرهان وخالية من المؤثرات المسبقة ، والانحيازات الموجهة ، فإن الخطاب المؤدلج ناتج عن عملية تفاعلية بين الذات والموضوع تختلف كليا عن هذا التصور .

أي أنه لا يفسر كون شخص ما أو جماعة تثير إشكاليات محددة لا تتجاوزها ، وتطرح تساؤلات مخصصة دون بقية الأسئلة في سياق يحدد مجال الإجابة ويقصرها في نطاق يؤكد الانحياز للقناعات السائدة لدي هذه الجماعة ، لا يفسر ذلك كله سوى الأفق الإيديولوجي الذي يتحكم وفق آلية خفية غير واعية .

فالأدلوجة تحدد أفكار وأعمال الأفراد والجماعات بكيفية خفية لا واعية . ولكي يصل الباحث إلى رسم معالمها لا بد له من تحليل وتأويل أعمال أولئك المعاصرين . وإذا درسنا مثلاً أدلوجة الخوارج فإننا نبحث في أدلوجة العصر ، تلك الأدلوجة الى تحكمت في أذهانهم وأذهان أعدائهم وجعلتهم يهتمون بمشكلات محددة بين سائر المشكلات الممكنة ، ويضعون سؤالاً دون باقى الأسئلة ، ويحاولون الإجابة عنه في إطار مخصوص . ولا سبيل لنا لاستخراج أدلوجتهم إلا بتأويل أعمالهم السياسية والأدبية ( العروي. عبدالله : 2012 ص11 ) .

ونزداد وطأة الأمر عندما تعمد الإيديويولوجيا إلى تسخير العلوم لخدمتها ، ففي الخطاب المؤدلج لا يكون العلم برهانا بل يصبح دفاعا تبريريا ، فالإيديولوجيا تستدعي النتائج العلمية شهودا على صحة حقائقها الإيمانية الشاملة لكل شئ ـ وهكذا يصبح العلم دفاعا تبريريا عن العقيدة . بمعنى آخرتصبح الحقائق في خدمة العقيدة المؤدلجة قلبا للميزان العادل الذى فيه العقيدة منبثقة عن الحقيقة .

هذا ولم تكتف الإيديولوجيا بخطاباتها بتوظيف العلم دفاعاً تبريراً فحسب ، إذ أنها تقوم بممارسة النفوذ والتأثير على العلوم ، فتطرح الأسئلة العلمية وتبحثها من زاوية افتراضاتها الجامدة ، وبذلك تنفذ إلى التفكير العلمي وتتخلله بتصوراتها المؤدلجة ، وعن طريق تنظيماتها تقوم بتعزيز هذا النفوذ الذى أخذت تمارسه على العلوم ( باريون . باريون 1971 : ص123.124 ) . وينطلق الخطاب المؤدلج ليعبر عن تلك الاختزالات للحقائق داخل منظومة شيدها التوجه الإيديولوجي .

ويمكننا ان نلاحظ أثر الخطاب المؤدلج في منهج الفكر والنظر والإدراك عندما نقف على استعمالات الإيديولوجيا ، فبعد أن تكلم العروي عن أهم استعمالات الإيديولوجيا والتي جمعها في ثلاثة استعمالات متمثلة في ميدان المناظرة السياسية ، والمجتمع في دور من أدواره التاريخية ، ومجال الكائن اى كائن الإنسان في التعامل مع محيطة ، نجد أنه يذكر استعمالا رابعا مشتركا بين المجالات الثلاث السابقة وهو انه عندما ندرس تأثير أية أدلوجة على الفكر فإنا نبحث في الحدود الموضوعية التي ترسم أفق ذلك الفكر . والحدود من أنواع ثلاثة : حدود الانتماء إلى أدلوجة سياسية , وحدود الدور التاريخي الذى يمر به المجتمع ككل , وحدود الإنسان في محيطة الطبيعي( العروي. عبدالله : 2012 ص12 ) .

فهذا الأسر الإيديولوجي يمثل الأفق الذهني الذى لا يتجاوزه فكر ولا يشذ عنه موقف . بمعنى أنه يتحكم في الأذهان فتدرك على نحو انتقائي وتهتم بقضايا دون أخرى ، وتتسامح في مواقف وتتشدد في غيرها دونما موضوعية حاكمة أو منطلقات متعالية معيارية , بل من منطلق ذاتي وعلى نحو إيديولوجي .

ويرى " ألتوسير " أن الناس لا يعبرون في الإيديولوجيا عن علاقتهم بظروف عيشهم ، بل عن الكيفية التي يعيشون بها علاقاتهم مع تلك الظروف . الشئ الذى يفترض في ذات الوقت علاقة حقيقية وعلاقة " معاناة " و " خيال ووهم " فحينئذ تكون الإيديولوجية هى التعبير عن علاقة الناس بـ " عالمهم " أى بوحدة تلتم فيها علاقته الحقيقية بظروف عيشهم مع علاقتهم الوهمية بتلك الظروف . ففي الإيديولوجيا توضع العلاقة الحقيقية داخل العلاقة الوهمية : تلك العلاقة التي تعبر عن ( إرادة ) أو أمل وحنين أكثر مما تصف واقعا معينا (Althusser . Louis 1972 . pp;238-240 . باختصار وتصرف ) .

والحقيقة أننا عندما نصف خطابا أو شخصا أو جماعة بأنها مؤدلجة أو تنظر للمواقف والوقائع نظرة إيديولوجية فإننا بوضوح نكون قد أصدرنا حكما مفاده أن الانحياز المسبق والقناعات الخارجة عن الموضوعية سوف تؤثر في الإدراك ، وسيظهر هذا جليا في تركيز هذا الشخص على موضوع دون بقية المواضيع ، وطريقة تأويله للأحداث بما يعضد انحيازاته ، وأسلوب توظيفه للوقائع بما يظهرها متوائمه مع أدلوجته التي يعتقد كونها الحقيقة المطلقة ,

إننا نقول إن فلانا ينظر إلى الأشياء نظرة أديولوجية بمعنى أنه يتخير الأشياء ويؤول الوقائع بكيفية تظهرها دائما مطابقة لما يعتقد أنه الحق , يتعارض الفكر الإيديولوجي مع الفكر الموضوعي الذى يخضع للمحيط الخارجي فيتشبع بقوانينه وذلك غير الفكر الإيديولوجي الذى يرتبط بمعتقدات مسبقة غير مرتبطة بمعطيات واقعية أو استنتاجات منطقية ( العروي. عبدالله : 2012 ص10 بتصرف ) .

وفي الأخير لعل ما سبق بيانه كان الدافع وراء التساؤل الذي طرحه كثير من المنشغلين بدراسة الإيديولوجيا وهو : ما الأسباب التي جعلت الفكر الإنساني في كل أدواره يري الأشياء وفقا لدعواه هو لا طبقا لذاتها هى ( أي الأشياء ) .

ونستخلص من ذلك أن الخطاب الإيديولوجي مجرد منتج شيدته أنظمة الدلالة ، بحيث تصبح الذات والواقع والأفكار منتجات لا تمت للوعي الحقيقى بصلة , حيث تعمل أنظمة الدلالة أو ما يسمي بأدوات التمثيل على إيجاد ذات وفق رؤية محددة , وتصوير الواقع على كيفية مطابقة للتوجه الإيديولوجي , ومن ثم إنتاج وعي مزيف يمثل خطاباً إيديولوجياً مجافياً للحقيقة , وهذا يؤكد على أنه لا ذات مستقلة ولا واقع حقيقى , وما يعبر عنه هذا الفكر إنما هى الصورة الذهنية المشوهة للواقع تدركها ذات غير مستقلة فينتج هذا الخطاب المؤدلج .

**ثانياً : خصائص الخطاب المؤدلج**

تنعكس خصائص الإيديولوجيا في الخطاب ، فهو المجال المعبر عن إرادتها وتوجهاتها ، وتمارس الإيديولوجيا من خلاله قناعاتها التي تسربها في العقول وتأسر بها الإدراك ، ومن الضرورى عرض هذه الخصائص التي أوجزها " ريمون بودون R.Boudom :، فقد ذكر أنها تتميز بما يلي :

 الطابع الصريح والواضح لصياغتها ، وإرادتها في الالتفاف حول معتقد إيجابي او معياري خالص ، إرادتها في التميز بالنسبة إلى منظومات معتقدية أخرى ماضية أو حالية ، انغلاقها أمام التجديد ، الطابع المتشدد لاقتناعاتها ، الطابع العاطفي لانتشارها ، مطالبتها بالانتماء ، ارتباطها بمؤسسات مكلفة بالدعم وتحقيق المعتقدات المعنية (وسيلة يعيش : 2002 . ص23 ) .

وكذلك من أهم خصائص الأيديولوجيا بحسب المفكر عبد الكريم سروش هي أنها :

 تتحول الأيديولوجيا إلى سلاح في مقابل من لا يؤمنون بها. كما تمتاز الأيديولوجيا بالدقة والوضوح والصلابة. وكذلك نجدها انتقائية تهتم ببعض الأمور وتغفل بعضها الآخر. ولها سمة

العدائية والاستئصالية، وبذلك تقوم على وجود العدو. والأصل والقاعدة في الأيديولوجيا «توليد الحركة» لا «البحث عن الحقيقة». ونظرا لعدم كونها علما خالصا او فكرا حرا فإنها تحتاج إلى مفسر رسمي .

ولا شك أن هذه الخصائص تتجلى مباشرة في الخطاب المؤدلج ، فيصبح خطاباً يتميز بوضوح رسالته من خلال صياغة نهائية ، ولكنه لا يستمد وضوحه من رسوخ أدلته أو عمق قضيته وإنما من خلال عمومية دعواه والتي ليس وراءها تفصيلات ثابتة مقنعة ، فالأمر أشبه بشعارات لا تقبل في منطوقها المراجعة ولكنها لا تحوي حقائق صالحة .

إن الخطاب المؤدلج يسعى إلى التفسير الشامل للمجتمع الإنساني وقواه المحركة , ويجعل من تفسيرها رؤية كونية وحقيقة كلية ، وفي هذا الإطار فإنه يعمل على اعتبار الحقائق الخاصة ـ حقائق ومصالح الطبقة ـ حقائق عامة مقدسة .وغير قابلة للنقض ، ويخفي اي تناقض يمكن ان يبرز للعيان بين المصلحة الطبقية الخاصة أو المصلحة العامة ، وحتى يستطيع الخطاب المؤدلج صياغة هذا التفسير الشمولي فإنه يخصع كل المتطلبات الكائنة والممكنة : اللغة , الأسطورة , الدين , الأخلاق , الحقوق , الفلسفة ويعمل على إقامة نسق معقد من التعقيدات والتبريرات . (وسيلة يعيش : 2002 . ص51 باختصار وتصرف ).

ومن خصائص الخطاب المؤدلج التمترس خلف معتقد إيجابي أو مبدأ معياري راسخ لا يقبل المنازعة ، ثم اعتبار كل ما يصدر عن هذا الخطاب له نفس حكم المبدا المعياري رغم الانفصام النكد بينهما ، ومن ثم تكمن قوة الإيديولوجيا في اخفاء هذا الانفصام وتعمية صورته على النقاد .

بمعنى أن يتم توظيف المبادئ في الخطاب المؤدلح بصورة تخدم نوازعه الخاصة وأهدافه الضيقة ، فالأمر أشبه بالقولة الشائعة ( كلمة حق أريد بها باطل ) .

ثم من بين خصائص هذا الخطاب خاصية التمايز عما سواه ، وليس هذا التمايز صفة راجعة إلى المضمون أو العمق ، كما لا صلة له بالاهداف والغايات ، بتعبير أوضح لا يأتي تمايز الخطاب المؤدلج جراء حقيقة كامنة وإنما مجرد دعوي فارغة تكسبها النزعة الإيديولوجية وهْم الحقيقة وتصدرها على انها قيمة راسخة لا تقبل النقد أو الجدال .

وبالنظر إلى هذه الخاصية نعثر فيها على مزيج بين الخصائص والوظائف ، ففي الوقت الذى تتضح معالم الخطاب من خلال خاصية التمايز نجد أن هذه الخاصية هي ذاتها وظيفتة ـ كما سيأتي بيانه ـ حيث لا يتأتى له ذلك التفرد إلا من خلال تشويه الآخر واتهامه واعتباره إما شيئا يمثل خطراً أو على الأقل خطة ناقصة أو رؤية قاصرة غير ملمة بالحقائق التي ينسبها الخطاب المؤدلج لذاته .

كما أن " التوكيدية " هى من أظهر خصائص الإيديولوجيا من خلال خطابها , فهذه الخاصية " تبتدئ من تصورات قبلية معدة سلفا قاطعة لا تقبل التراجع ولا تحتمل الحوار ، فتصادر الرأي الآخر على الفور". ( الراوي . عبدالستار عزالدين : 1988 . ص69 ) .

إن هذه التوكيدية ناتجة عن الوقوع في أسر أحكام مسبقة غير خاضعة للمراجعة ولا علاقة لها بالفكر الموضوعي . يقول دولباخ : " إن التفكير بحرية معناه التحلل من الأحكام المسبقة التي يعتقد الطغيان أنها لازمة لحمايته ودعمه " ( العروي. عبدالله : 2012 ص27 ) . وما ينطلق منه الخطاب المؤدلج إنما هي قوالب وأنماط يعتقد معتنقوها قدسيتها وكليتها ونهائيتها ، ولا يتاملون فيها إلا لتقويتها بالتبريرات وتشويه مخالفها , وبهذا يصبح الخطاب توكيدياً يحذف ما سواه ويبطله .

يضاف لما سبق خاصية " الاستعلاء الإيديولوجي " وما يمكن تسميته بـ ( مبدأ التفوق ) ، ففي الخطاب المؤدلج وكنتيجة لخاصية التوكيدية يصبح الاستعلاء سمة الخطاب , ويكتسب هذا جراء قناعته المفرطة بمصداقيته وامتلاكه ناصية اليقين القاطع , ومن ثم فإن أي محاولة للنقد تجابه بوابل من التهم , حيث من بين وظائف الإيديولوجيا ـ كما سياتي ـ تشويه المخالف .

ولا شك ان " النمطية والسطحية " تعد أكثر خصائص هذا الخطاب وضوحا ، فهو متمحور حول أنماط وقوالب جاهزة معدة سلفا , ويتراءى ذلك على مستوى الفكر والتنظير أو المستوى الجدلي التبريري ." وعلى المستوى الفلسفي نلاحظ هذه الخاصية للخطاب المؤدلج فلا يحمل تفكيراً علمياً منطقياً بقدر ما هو قوالب نمطية جاهزة وسريعة تعتمد في شيوعها ورواجها على بساطتها وسطحيتها وإيهامها لمعتنقيها بكلية الرؤية وكفاية التفسير"( عبدالجواد . رزق : 2022 , ص 9) .

وفي الأخير فإن " إقصاء الآخر " تعد أهم خصائص الإيديولوجيا بخطابها , فالواقع في أسرها مرتهن لحساب قناعاته وهو دوما في حالة اختطاف عقلي ورفض للواقع . مما يعنى وجود واقع افتراضي في العقلية المؤدلجة لا يمت بصلة للواقع الفعلي , هذا الواقع البديل ترسمه المقولات والتصورات والأهداف الضيقة للإيديولوجيا التي ينتمي إليها الخطاب ، فإذا كان الفكرالسليم مرتبط بالواقع بكافة أبعاده فإن الخطاب المؤدلج في قطيعة مع الواقع ويترتب على ذلك أقصائه للآخر ، كونه لا يعترف بغير رؤيته وروايته .

ويتأتى ذلك من سيطرة الشعور باليقينية لدى الواقع في دائرة الانتماء الإيديولوجي ، ومن ثم لا وجود للآخر باعتباره شاذا وخارج نطاق البدهية المؤدلجة التي توجب على مخالفها الطرد والإبعاد .

والحقيقة أن "إصرار المؤدلج على أن أفكاره تمثل الحقيقة المطلقة تعد انتكاسة للفكر البشري وهزيمة للمبادئ والقيم الإنسانية ، وتكشف خطورة الإيديولوجيا لاسيما في ظل غياب للوعي ووجود ذهني لا يلامس إلا القشور" . ( الحارثي . زهير : مقالة . الشبكة الدولية ) .

وكما هو ظاهر من هذه الخصائص فإن مجال تجلياتها يكون على أشده وأوج ظهوره في الخطاب ، لذلك فمن اليسير أن نرصد في الخطاب المؤدلج تلك الخصائص . فهو خطاب إقصائي تشويهي جبري لا يحتمل معارضة ولا يقبل الحوار باعتبار أنه نهائي وكلي .

**المبحث الثاني : البعد الوظيفي للخطاب المؤدلج**

وهذا المبحث يستقصى في محورين على النحو النالي :

**المحور الأول : الدور الوظيفي للخطاب المؤدلج**

لعل من بين أكثر الدراسات التحليلية لوظائف الخطاب المؤدلج تلك التي قدمها " بول ريكور "

[[4]](#endnote-1) وخلاصة تلك الرؤية أنا يوظف للقيام بمهام ثلاث : من بينها تقديم صورة مقلوبه ومشوهة عن الواقع وتزييف وعي الناس بما يتلاءم والمصلحة الإيديولوجية ، ولعل هذه الوظيفة هي الأكثر شيوعا عن الإيديولوجيا في ذهن من يدركونها عن قصد مفاهيمي بحثي . وكذلك من وظائفها التبرير ، فيقوم الخطاب المؤدلج بتبرير الأفكار التي تتبناها الجماعة أو الطائفة أو النظام المسيطر وحراستها بصورة تجعلها لا تهتز أمام تحديات الواقع والرؤي الثقافية المغايرة . وتأتي في الأخير بحسب تحليل " ريكور " الإدماج كوظيفة أساسية وذات عمق راسخ ويكون مغزاها هو دمج العناصر داخل الإيديولوجيا وصبغهم بصبغة تجعلهم مترابطين لهم توجه متماثل وإدراك متطابق ، وذلك بإحياء صورة ذهنية واستعادة رموز وأحداث مؤسسة وإعادة انتاجها في الحاضر لتكون بمثابة نقطة ارتكاز للجماعة الإيديولوجية تضمن تماسكهم وتحقق تماثلهم الفكري . كما " تتميز الإييولوجيا عن العلم من حيث ان وظيفتها العملية المجتمعية تفوق من حيث الاهمية وظيفتها النظرية ( المعرفية ) " ( سبيلا.محمد , العلي.عبدالسلام : 2006 ص8 ) .

وترتبط هذه الوظائف بطريقة وثيقة بالخطاب المؤدلج ، باعتبار أنه الانعكاس المباشر والمظهر الذى تتجلى فيه كافة الأبعاد المعرفية للإيديولوجيا , بل إننا لا نلتفت لوجودها إلا من خلال الخطاب الذى يحمل خصائصها ووظائفها .

وسوف تعرض هذه الورقة وظائف الإيديولوجيا في تحليل " ريكور ":

**التشويه :**

التشويه إعطاء صورة مشوهة وغير حقيقية عن الواقع ، ومن حيث كون الخطاب تشويهاً فإنه يصبح كذلك ( وسيلة تشويه ) عندما تتجمد وظيفته الإدماجية ويحدث ذلك عندما تكون الغلبة للتخطيط والعقلنة .

 ويقصد بالتشوية ـ كما في رؤية ماركس للإيديولوجيا أن " التقابل بين الأشياء كما تبدو في الأفكار وكما هى في الواقع يصيبها التشويه فتظل الفجوة بين التمثيل الذهني ( الإدراك وانطباع الصورة في العقل ) وبين الواقع " ( ريكور.بول : 2002, ص10 ) .

والحقيقة أنه كلما كانت الإيديولوجيا تملك القدرة على الاستقطاب ودمج العناصر في مقولاتها وتحت غطاء قناعاتها فإن حاجتها لتشويه الآخر لا تكن على رأس اهتماماتها ، وإن كانت تظل وظيفة التشويه قائمة إلا أنها تكون بوتيرة أقل حدة .

ونستطيع القول بأن التشويه كوظيفة للخطاب الإيدولوجي يتوقف على أمرين : أحدهما مدى الحاجة إليه لتماسك الجبهة الداخلية للفئة المؤدلجة ، والآخر دور التشويه في تفعيل وظيفة الإدماج التي سنتكلم عنها لاحقا .

وبصفة دائمة نعثر في الخطاب المؤدلج على عنصر التشويه كأحد أهم وظائفه التي تضمن له مثالية زائفة ، وينصب هذا العنصر على كل ما يزاحم هذا الخطاب علي ساحة العمل سياسية أم اقتصادية أم دينية أم اجتماعية ، وفي الوقت الذي يقوم فيه الخطاب المؤدلج بهذه الوظيفة فإنه ليس دائما مدلِساً أو مختلِقا لهذه التشويهات فقد تكون حقيقية أحيانا ، إلا أن ما يميز عملية التشويه الإيديولوجي أنها توظف بغرض اجتثاث المخالف لا نقده في إطار منهجي سليم .

**إضفاء المشروعية ( التبرير )**

التبرير : تفسير الإنسان لسلوكه بأسباب معقولة ومقبولة ولكنها مكذوبة وغير صحيحة وبحسب " بول ريكور " يتم استخدام التبرير لإضفاء الشرعية على ممارسة غير مقبولة (ريكور.بول : مقالة . الشبكة الدولية ) .

تؤكد الماركسية بأن الافكار التي تهيمن في حقبة ما هى أفكار الطبقة الحاكمة والجدال حول ما إذا كان ذلك ناتج عن علاقة سببية بين القوى الاقتصادية والأفكار أم أنها علاقة حثية بمعني كونها حث ودعم في اتجاه محدد .

إنه من أجل أن نفهم خاصية إضفاء المشروعية في الخطاب المؤدلج يجب أن نسلم " بانه من غير الممكن محو مسألة الشرعية من الحياة الاجتماعية وذلك لعدم وجود نظام اجتماعي يعمل بفعل القوة وحدها ، كل نظام اجتماعي يسعى بشكل ما إلى الحصول على موافقة أولئك الذين يحكمهم . وهذه الموافقة الممنوحة للقوة الحاكمة هي ما يضفي الشرعية على حكمها " ( ريكور.بول : 2002, ص14 ) .

ومرة أخرى فإن هذا الأمر ينطوي على دعوي واعتقاد ؛ دعوي من جهة حامل الخطاب بشرعية ما يمثله واعتقاد من المتلقي بصحة الدعوى . والفجوة بينهما تجسرها الإيديولوجيا بخطابها .

وجدير بالذكر أن الإقرار بصحة الدعوي من قبل المتلقى للخطاب المؤدلج لا يتم عن طريق الأدلة والبراهين والحقائق ، إنما يعتمد على الاسلوب الحثي لا العلاقة السببية التي تشكل الدليل المقنع بل الحث على التصديق ، ويأتي هذه الحث بصور عدة كلها لا تمت للبرهان بصلة أهمها التبرير. وهذا من أهم الخصائص الإيديولوجية الذى يتسم به الخطاب .

وفي الأخير يري " ريكور " أن الإيديولوجيا لا تقدم وعياً حقيقياً , بل تعمل على انتاج وعي زائف عن الواقع معتمدة على وظيفتي التبرير والإدماج (ريكور.بول : مقالة . الشبكة الدولية ) .

**وظيفة الدمج**

من بين أهم خصائص الخطاب المؤدلج كونه أداة دمج ويحلل الباحثون الإيديولوجيا في مستوي من مستوياتها بوصفها أداة دمج ( Integration )

وهنا يؤدي الخطاب المؤدلج الدور الوسيط بين الواقع والفكر في العملية الاجتماعية ككل والثقافية بصفة خاصة ، وهذا بدوره يجعل انطباع الحقيقة في الذهن ليس مباشراً ، ويصبح الخطاب المؤدلج يمثل رمزية التأثير في الذهن لإدماج المخاطب المستهدف في عمق الحالة الإيديولوجية التي يعبر عنها الخطاب .

ووصف الخطاب بخاصية الدمج يشير إلى محافظته على الهوية الاجتماعية أو الدينية أو الثقافية التي يمثلها ، لكن لا يتم ذلك وفق إدراك صحيح لحقائق الواقع وانعكاس مباشر لمعطياته في العقل بل من خلال عمليات معقدة تبريرية تأويلية تحافظ على التقديرات الخاصة والرؤي الداخلية للجماعة الإيديولوجية بغض النظر عن مدى توافقها مع الواقع والحقيقة ، ومن هنا ياتي دور الخطاب المؤدلج ليسد هذه الفجوة بين التقديرات الإيديولوجية والواقع .

يذكر ريكور أن افضل وظيفة للإيديولوجيا هى الدمج أي الحفاظ على هوية الشخص أو الجماعة ( ريكور.بول : 2002, ص19 ) .

**المحور الثاني : آلية التوظيف الإيديولوجي للخطاب**

تعمل الوظائف السابق بيانها في الخطاب من خلال آلية تتركز في معظمهاعلى ما يسمي الإيحاء الإيديولوجي وكذلك التمثيل الذهني للنص .

**أولا : الخطاب المؤدلج والإيحاء الإيديولوجي**

يقصد بالإيحاء في السياق الإيديولوجي تلك المعاني الذاتية التي يضفيها الفرد أو الجماعة على النص ، فهي بمثابة معاني ثانية لا تتعلق بالأصل الوضعي للغة أو أيحاءاتها المجازية البلاغية أو إشارة النص المأخوذه من عبارته أو مفهوم المخالفة أو غير ذلك من أسس الوضع اللغوي . وإنما تتعلق بالافق الفكري الذى ترسمه التوجهات العامة المؤدلجة ، كأن يكون الميول الجمعي نحو المغالاة في التكفير والتفسيق ، فينشأ عن ذلك إيحاءات ذاتية تتجاوز منطوق النص لتوظيفه إيديولوجيا في تحقيق الميول العام والافق الفكرى السائد .

الفكره هنا تنصب على التفريق بين ايحاءات النص والإيحاء الإيديولوجي المرتبط بتوجهات الفرد والجماعة

ولا يمثل الإيحاء سوى توجه داخلى يمعنى أنه لا يظهر كدليل منفصل ولا يعبر عن ذاته في صيغة لفظية ، وإنما نعثر عليه جليا عندما يتجاوز النص حدود دلالته الشرعية واللفظية إلى تصنيف منزلته في الفكر وتعظيم آثاره في الواقع وتوظيفه كاساس ذهنى في الولاء والبراء ، وتحديد موقع الآخرين قربا وبعدا من التوجه الجمعي الإيديولوجي الذي ينتمي إليه الفرد وتحرسه الجماعة .

الإيحاء صيغة إيديولوجية تتحول من خلالها الأبعاد الثقافية في الفعل الإنساني إلى وجه طبيعي يلغي الوجه الزمني لهذا الفعل ( انظر: كاترين أوريكيوني . مجلة علامات ) . بمعنى أن ما ينتج عن هذا الإيحاء لا ينظر إليه على أنها مقاربة أو تأويل أو محاولة فهم مرتبطة بسمات الناظر بل على أنها مطلقة بديهية متعالية وهذا هو معنى إلغاء الوجه الزمني .

**الخطاب المؤدلج وتمثيل النص ذهنياً**

لما كان الخطاب بصفة عامة هو نتاج النظر في النص وإدراك الواقع فإن هذا النتاج يختلف باختلاف طريقة النظر وطبيعة الإدراك ، وتسمى عملية انتقال صورة الواقع للذهن وحصيلة النظر في النص بعملية التمثيل .

والخطاب المؤدلج هو محصلة عملية تمثيل يشوبها انحياز وتؤثر فيها عوامل ذاتية بعيدة عن الموضوعية , وتعكس مصالح وميول وأغراض لا صلة لها بالنص والواقع ولكنها تؤدي إلى تزييف الوعي بالنص والواقع معا .

والتمثيل هو نشاط ذهني ومسلك عقلي يتم به تصوير الأشياء في الذهن كالإدراك والتخيل والحكم بغية إدراكها ، وما ينتج من هذا النشاط من صور حاصلة في النفس يتألف عادة مما ندعوه بالظواهر العقلية التي تحصل بها المعرفة ، والتي تختلف عن الظواهر الانفعالية والوجدانية .

وفي الفلسفة يطلق على تلك الصور الناتجة من فاعلية الذهن اسم التمثلات او التصورات . والتمثل إما حصول صورة الشئ في الذهن , وإما إدراك المضمون المشخص لكل فعل عقلى ذهني فنقول تمثل الشئ اى تصوره وتخيله , وتمثل المثلث تصور ماهيته ونوعه .

نفهم من ذلك أن عملية التمثيل تتضمن : الممثَل والممثِل وأداة التمثيل . ومن مجموع الثلاثة ينتج المثال الذى تعود أهميته إلى كونه يطابق ـ في فكر مَن تمثله ـ الحقيقة الواقعية ويقوم مقامها .

والإدراك التمثيلي[[5]](#endnote-2) representative perception يعني إدراك الصور التي تتكون في العقل وتمثل موضوعات العالم الخارجي ومن ثم فإن نظرية الإدراك التمثيلي تتعارض بوضوح ونظرية الإدراك المباشر ( انظر: إلياس . سوسان مقالة : المثول ( التمثيل ) .

وكما سبق بيانه في التحليل المفاهيمي إذا كان التمثل إن هو إلا موضوع متمثل وذات مدركة ( متمثلة ) فإن المعرفة ليست سوي تمثلات عقلية عن الحقائق الواقعية او القضايا الثقافية . ومن ثم يصبح تحليل التمثلات برؤية نقدية أساس منهجي للوعي النقدي , ما دام أن المعرفة لا تمثل الأشياء في ذاتها بقدر ما هي تمثلاتنا الذهنية عنها .

تؤدي التمثلات دورا في غاية الأهمية على الصعيد الاجتماعي والسياسى والثقافي ، وهى الأداة التي تقود نحو التجانس والتناغم في الرؤي والتوجهات والمواقف والأفكار ، ومن ثم فهي تلعب دورا بارزا في عملية التماسك الاجتماعي والسياسي ، لذ ا فاعتبار أهميتها وخطورة دورها يوجه نحو ضرورة الوعي النقدي بآليات هذه التمثلات من حيث تأثير الإيديولوجيا في تمثل الواقع وفرض الصور الذهنية على العقول .

إن مصطلح التمثل representation في اللغة يعنى تصور الشيء او تخيله واستحضاره في الذهن . وهو عبارة عن عملية ذهنية أو فكرية تشير للكيفية التي يستخدم بها الشخص معارفه أو فهمه لشيء ما . وبهذا المعني فهو يعتبر موقف او شكل من اشكال الاستجابات تتضمن تأويلات وتفسيرات وإحالات وهو أيضا عبارة عن عملية تبادلية بين الذات والموضوع أى يتعلق باللغة والتواصل ويكون فرديا أو جماعيا , "والتمثل مفهوم صارت تتقاسمه مؤخرا عدة حقول انسانية مثل علم النفس وعلم الاجتماع " (الحسين : محمد عبدالله , مقالة : تمثلات الإيديولوجيا والأسطورة ) .

وقد أشار " ديفيد هوكس " إلى ما يسمي استقلال التمثيل في تيار ما بعد الحداثة ، وهي الفكرة التي يمكن أن نأخذها بعين الاعتبار في تحليل الخطاب المؤدلج ، " فالسميوطيقا والتفكيك يتحديان الاعتقاد الواقعي للقرن التاسع عشر الذي يذهب إلى أن العلاقات اللغوية تشير ببساطة نحو أشياء واقعية على نحو شفاف لا تعقيد فيه . وبدلا منه يوحيان بأن ما ندركه بوصفه العالم " الواقعي " قد خلفته لنا أو شيدته لنا أنظمة الدلالة التي نستخدمها لتمثيله " ( هوكس.ديفيد , 2000 , ص5 ) .

تزعم كل النظريات الحديثة عن الوعي الزائف أنه ناشئ عن خلل في التوازن بين العلاقة ثلاثية الأطراف ين الدات ( وهي مجال الفكر ) والموضوع ( عالم الأشياء المادية الواقعية الجوهرية ) ووسائط التمثيل التي تتوسط ين هذين القطبين وتشكل هذه العناصر الثلاثة كلا ، وحينما يقصد خطاب أو ( مجموعة أفكار ) أن يصف آخر بأنه زائف فإنه يعلن دائما أن خصمه أساء فهم العلاقات بين الأجزاء الثلاثة لهذا الكل ( انظر : هوكس.ديفيد , 2000 , ص14 ) .

وفي الأخير فإن ( التمثل ما هو إلا عناصره المتضمنة من موضوع متمثَل وذات مدركة ( متمثِلة ) ، وأساس معارف الإنسان تحليل معطيات الامتثال منظوراً إليها في علاقاتها العامة ، فلم تعد المعرفة معرفة بالأشياء بذاتها بقدر ما تقوم على الامتثال الذى لدينا عنها فحسب ( انظر: إلياس . سوسان مقالة : المثول ( التمثيل ).

ومن خلال ذلك ندرك آلية تأثر الخطاب المؤدلج بعملية تمثيل الواقع ، وأن هذا الخطاب لا يعبر عن إدراك مباشر للنص والواقع والتاريخ بقدر ما هو إدراك تمثيلى بمعنى أنه يتصور الحقائق بحسب طريقة تمثلها وأدوات التأثير وأنظمة الدلالة التي تقود نحو استقطاب في اتجاه إيديولوجي .

**المبحث الثالث : نقد الخطاب المؤدلج وتقويمه**

**أولا : نقد الخطاب المؤدلج**

لا يرى حامل الخطاب المؤدلج نفسه على غير الجادة ، وذلك لكونه لا يلمس حقيقة خطابه وإنما ينسب نفسه للحقائق المطلقة بعدما صارت أدلوجته تحل محل المتعالى والمتجاوز والثابت المطلق ، بمعنى أنه نزع الصبغة الذاتية عن خطابه بعدما تناسى أن ما يدعيه من قدسية متجاوزة الذات إنما هي أفكاره أو أفكار من تلقى عنه ، ورغم درجة الوضوح لتلك الحقيقة إلا أنه ظاعن في خداع ذاته .

 إننا نجد دعوي التجاوز المطلق المنزه عن الذاتية والظرفية كصفة الأساسية في الأدلوجة حين " يرى حامل الخطاب أدلوجته الخاصة عقيدة تعبر عن الوفاء والتضحية والتسامي ويرى في أدلوجات الخصوم أقنعة تتستر وراءها نوايا خفية لا واعية يحجبها أصحابها حتى على أنفسهم لأنها حقيرة لئيمة . " إدلوجة المتكلم تنير الطريق فتهدى الخلق إلى دنيا الحق والعدل , بينما تعمي أدلوجة الخصم الناس عن سبيل الحقيقة والسعادة . إن دارس الأدلوجات لا يحكم عليها من زاوية الحق والباطل ، وانما يصفها فقط بالنظر إلى فعاليتها ، وإلى قدرتها على استمالة الناس والاقتراب من أهدافها " ( العروي. عبدالله : 2012 ص11 ) .

**الربط بين مفهوم الأدلوجة وبين الموقف النقدي**

يعد البعد النقدي أهم مرتكزات دراسة الإيديولوجيا ، وعلى حد وصف " العروي " فإنه " لا يمكن لنا ان نستعمل المفهوم بكيفية إبداعية إذا كنا نرفض الفكر النقدي ، إذا كنا ما نزال نبحث عن المطلقات معتقدين أن الإنسان قادر على إدراكها ( على مستوي الفكر والنظر ) " ( العروي. عبدالله : 2012 ص19 )

إننا نصف خطابا أو اتجاها بأنه إيديولوجيا نكون في ذات الوقت أصدرنا حكما وأظهرنا موقفا نقديا تجاه فكر تجاوز حد النسبي ليُقدم على أنه ثوابت ومنطلقات وحقائق غير قابلة للمراجعة ، ومن هنا عندما نصف الخطاب الديني بالمؤدلج فإننا نعبر عن رؤيتنا لهذا الخطاب وما يتضمنه من صفات تحيد به عن جادة الصواب ، وبالضرورة لا يرى أصحاب هذه الخطاب أنفسهم كذلك إذ ما نعتبره أدلوجة يرونه حقائق ثابتة . إن هذه يؤشر لمدى ضرورة البعد النقدي كاساس لفهم الإيديولوجيا

والحقيقة أنه ما لم نلتزم بالظاهرة النقدية عند تناول الإيديولوجيا نكون قد طمسنا حقيقتها ، ولم يعد هناك ما يميز هذا المفهوم عن مفاهيم قد تختلط في تصوراتنا معه مثل : فكر، اتجاه , ذهنية ، عقيدة , فلسفة . وحدها الرؤية النقدية هى التي تضع الإيديولوجيا في سياقها البحثى الصحيح , وبدونها تصبح مجرد لفظة فارغة من اي مضمون حقيقي .

" إن مفهوم الأدلوجة دائما مزدوج ، فهو في نفس الوقت وصفي ونقدي . يستلزم دائما مستويين : المستوي الذى تقف عنده الأدلوجة حيث تظن أنها حقيقة مطابقة للواقع وهو المستوى الذى يقف عنده الباحث لوصف تلك الأدلوجة بوفاء وامانة ، والمستوي الثاني هو الذي يقف عنده الباحث عندما يحكم على الأدلوجة أنها أدلوجة لا تعكس الواقع على وجهه الصحيح . إذا بقى الباحث في مستوي واحد ، عليه إذن أن يحكم في إطار الحق والباطل ولم يعد لكلمة أدلوجه أى مدلول خاص " ( العروي. عبدالله : 2012 ص13 ) .

ليس بالإمكان التغاضي عما يتضمنه هذا المفهوم من ارتباط بالواقع والحقائق المنبثقة عنه ، ولا معنى لهذا المفهوم بعيدا عن الرؤية النقدية لارتباطاته ، فأدلوجة عصر النهضة تدرس في سياقها التاريخي الذى يكشف ذهنية هذا العصر وطبيعة الفكر السائد ونسبية الحقائق الآنية .

من خلال تلك الظاهرة النقدية لدراسة هذا المفهوم ستظهر لنا العديد من الإجابات التي تكشف حقيقة الانتماء الفكري للخطاب , وطريقة الإدراك ، وطبيعة الوعي . وسيكون في الوسع القدرة على فهم الاهتمامات الفكرية ، والتعرف على أسباب تمحور الخطاب حول قضايا محددة من بين العديد من القضايا , وطرح أسئلة بعينها دون بقية الأسئلة وتحديد سياق الإجابة عليها لضمان إجابة مستهدفة توظف في الإطار الإيديولوجي للخطاب.

**ثانيا :ألية تقويم الخطاب المؤدلج**

1. **فهم حقيقة الوهم الإيديولوجي**

إننا لا نشرع في وصف خطاب خصمنا بالطابع الإيديولوجي إلا حينما لا نعتبره كذبا مقصودا وعندما نشعر بأن سلوكه يخفي في كليته عدم صدق ، فنعتبره ناتجا عن وضعه المجتمعي الذى يوجد فيه . " إن المفهوم الجزئي للإيديولوجية [[6]](#endnote-3) يعنى إذن ظاهرة تقع بين مجرد الكذب من جهة وبين الخطأ الذي ينتج عن جهاز تصوري ناقص مشبوه من جهة أخري . وإن تلك الظاهر ترجع إلى سلسلة من الأخطاء ذات طابع نفساني ، تتميز عن الخداع من حيث كونها غير مقصودة ولكنها تصدر حتما ودون إرادة عن أسباب محددة " ( مانهيم. كارل : 1956 . ص78 ) .

الحقيقة أنه لا توجد نظرية معرفية تستطيع أن تخفي الطابع العلائقي للفكر بالمجتمع والتاريخ ، فليس في المقدور أن يستقل الفكر في وضعية تجريدية أشبه بعملية حسابية مجردة نتيجتها لا تتأثر بالمكان والزمان .

ومن ثم فإن آلية مواجهة الفكر المؤدلج يتحقق بكشف هذه الارتباطات العلائقية في أبعادها المختلفة حتى يتسنى الوقوف على أسباب الوقوف عند بعض النقاط دون بعض وانتقاء القضايا والتمحور حول مقولات محددة .

ومما ينبغي استيعابه كسمة في الخطاب المؤدلج أن معقوليته وتمام منطقة وعدالة قضيته لا تستند إلا في صياغته وفق إطار ذهنية خاضعة لسياق تاريخي متعدد العلاقات ، ومتى استطعنا التعامل مع هذه الخطاب بمعزل عن هذا السياق ووفق منطق عام مجرد ومقولات عليا حاكمة فإن هذاالخطاب سيفقد معقوليته .

وبالرجوع إلى كون الخطاب المؤدلج نسق ذو منطق علائقي خاص وأبعاد تفسيرية تنتمي لمرجعية وذهنية وتراكمات معرفية نسبية ينتج عن هذا النسق تمثلات للقضايا والأحداث والأفكار في إطار محدد يسمح لكل من ينتمي لهذا النسق بالتوافق والترابط ، ويشكل وحدة مجتمعية ذات وجود ودور متمايزيين في حقبة تاريخية . فإننا وفق هذا التصور ندرك أنه من الطبيعي " أن نعترف" بوجود الإيديولوجيا في كل المجتمعات البشرية التي تفرز الإيديولوجيا كما لو كانت هى العنصر والمناخ الضرورين لحياتها التاريخية ، بل إنه مفهوم إيديولوجي عن العالم ذاك الذى استطاع ان يصور المجتمعات من غير إيديولوجيات ، والذي قبل الفكرة الطوباوية عن عالم قد تختفي منه الإيديولوجيا دون أن تترك أثرا لكي يحل محلها العلم ، هذه الطوباوية تتماثل مع تصورالدين وقد حل محله العلم " (Althusser . Louis 1972 . pp;238-240).

وإذا سلمنا بأن الخطابات المؤدلجة تفرزها المجتعات البشرية كانما هي شرط لوجودها ، أو أحد شواهد حضورها ، عليه فإن " وجودها والاعتراف بضرورتها هما وحدهما اللذان يسمحان بالتـأثير على الإيديولوجيا وجعلها وسيلة واعية فعالة في التاريخ " ( سبيلا.محمد , العالي.عبدالسلام : 2006 ص9 ) .

وإن النجاح في نقل الإيديولوجيا من منطقة اللاوعي حيث تمارس كافة تأثيراتها من دون وعي معتنقها إلى منطقة الوعي هو ما نسميه بكشف الوهم الإيديولوجي ، والاعتراف بالانحياز له اقرب السبل لمواجهته أو تقويمه .

ويمكننا أن نؤكد على " أن الإيديولوجيا نسق من التمثلات ولكن هذه التمثلات في أغلب الأحيان لا تمت إلى الوعي بصلة . إنها تكون في معظم الأحوال صورا واحيانا تصورات ، ولكنها لا تفرض نفسها على الأغلبية الساحقة من البشر إلا كبنيات قبل كل شئ ودون أن تمر بوعيهم ، إن هذه التمثلات هى عبارة أن موضوعات ثقافية تدرك وتقبل وتعانى فتؤثر على البشر وفق عملية يجهلون مدلولها " ( سبيلا.محمد , العالي.عبدالسلام : 2006 ص9 ) .

وعليه فإن تقويم الخطاب المؤدلج يتطلب بالضرورة فهم لعملية تأثير الإيديولوجيا بالطريقة اللاوعية التي تجعل معتنقها لا يشعر بانحيازه وتاثره بها ، ومن ثم التعامل مع المعطيات الإيديولوجيا بالنقد والتوجيه ، وما لم نقهم تلك الآلية فإننا لا نستطيع مواجهة هذا الخطاب المؤدلج .

وقد نعثر في محاولة فهم التأثير الإيديولوجي على تمثلات الذهن ومدركات الواقع على علاقة غاية في المكر الإيديولوجي حيث تبدى لنا أن معتنقيها لا يعبرون عنها في تصوراتهم وأحكامهم ومواقفهم بل كل ذلك ناتج عن علاقة الإيديولوجيا ليس بواقع معتنقيها بل علاقتها بالكيفية التي ينظم الناس من خلالها علاقتهم بواقعهم . إذن هى ليست علاقة بالواقع وإنما هى محدد يرسم العلاقة .

وهذا يجعل من الصعب الاعتراف بها ويحميها من تعرضها للنقد والمراجعة ، لأنها حينئذ تكون متخفية تمارس تأثيرها من بعيد دون أن يكون لفريستها وعي بوجودها ، ونصبح نحن المسؤولون عن كشفها وعزلها عن الخطاب المتأثر بها .

1. **تحديد منظور الخطاب المؤدلج**

إن الصورة المدركة لا تنعزل عن زاوية النظر او ما يسمي ( المنظور ) فإذا أدركنا موضوعا على وجهة ما فإننا نتساءل لماذا يدركه الآخرون على نحو مغاير ؟

وهذا التساؤل يتيح خطوة عملية في آلية تقويم الخطاب المؤدلج ، إننا نستطيع من خلال هذا التساؤل أن نصل إلى الموضوعية بتحديد أى منظور هو الأفضل في رؤية الموضوع كاملاً غير مبتسر ومجتزأ ؟

"وكما هو الحال فيما يخص المنظور البصري حيث يكون لبعض المواقع امتيازاتها لتبين اكثر القسمات المميزة للموضوع المدروس ، فإن الأولوية ستعطى للمنظور الذي يقدم بصورة بديهية الفهم الأوسع والأكثر غنى بالنسبة إلى العمل في المواد التجريبية " ( سبيلا.محمد , العالي.عبدالسلام : 2006 ص13 ) .

وعلى مستوى الخطاب المؤدلج يكون بلوغ المنظور الإيديولوجي للأفكار والتصورات الأساس لفهم حقيقة المدركات وأسباب انحرافها وتطرفها ودافع انتقائيتها أو تسعف تراتبيتها على نحو غير معبر عن حقيقة الموضوع .

ويحدد المنظور نتيجة عملية التحليل والتركيب ، إنه في الحقيقة الإيديولوجيا التي تجعل هناك حكما مسبقا بعيدا عن الموضوعية والحيدة . أى أن عملية التحليل والتركيب المؤدية إلى مفهومات عامة لا يمكنها أن تصاغ في نسق واحد منتظم بصورة نهائية بل لابد من أن تتعدد هذه الأنساق بتعدد وجهات النظر القيمية( المنظور ) ( انظر : قنصوة . صلاح : 2007 . ص369 ) وهذا يدعو بإلحاح أن نتخلص من كافة الحمولات الإيديولوجية المتمثلة في منظور ضيق يختزل ويختصر أو يسهب ويطنب وفق قناعات مسبقة .

ويبدو أن رصد المنظور يحتاج إلى دراسة الحالة من كافة زواياها بحيث نتجاوز الخطاب المؤدلج إلى حامله وانتماءاته الفكرية وقناعاته الذهنية وسياق تطوره الانفعالي والقاعدة العملية التي تتقاسمها كل آرائه . فمن خلال دراسة الحالة نقف على المنظور الإيديولوجي حيث يمكنا فهم آلية الخطاب ونقده وتقويمه .

1. **مواجهة تراكم القناعات الإيديولوجية**

ينجم عن متوالية القناعات الإيديولوجية نوعا عنيفا من التعصب يحجب التفكير السليم ويمنع من التزام الدال بمدلولة ويحول دون الاستنتاج المنطقى السليم ويعمي على حامله بدائه الأمور .

لهذا تجد الخطاب المؤدلج انتقائيا في آلياته أحاديا في تقريراته لا يحاور بطريقة علمية ومرتبة ومتزنة وبمهارة استدلالية بل هو مشوش يعتسف الأدلة ويختزل القضايا ويُلزم ما لا يلزم , ولا يتقن الكشف عن العلاقات في النظام اللغوي ومع ذلك يأبى الرضوخ للحق تعصبا لباطلة ( انظر : عبدالله السعودي , مقالة : التفكير المؤدلج ).

إن التعصب الإيديولوجي ينتج خطابا يتشح بوشاح صناعة الأزمات الفكرية والإشكاليات الحوارية كظرف مناسب لبلوغ مآربه ولا يحمل سوى قناعات قائمة على محيط إيديولوجي ضيق يكافح حامله لأجل إحلاله محل المبدا العام والحكم المطلق ولايؤدي ذلك في النهاية إلا لضرب من الاستبداد الفكري وأحادية الحوار

 وتمثل تراكم القناعات الإيديولوجية أحد أبرز العراقيل الحائلة دون الممارسة التفكيرية السليمة والتي تحجب الوعي عن المعاينة الدقيقة النافذة , وما لم يتم اختراق هذه التراكمات المؤدلجة سيصبح متعذرا إزاحة الوعي الزائف .

1. **تحديد ملامح العلمية والأدلجة في الخطاب**

من المتعارف عليه في الأوساط العلمية المهتمة بدراسة سوسيولوجية المعرفة[[7]](#endnote-4) وجود فوارق واضحة بين العلم والإيديولوجيا. حيث يهتم هذه الاتجاه بتحديد نسبية المعرفة في بعدها الاجتماعي وطورها التاريخي ، الأمر الذى يشير إلى صعوبة الموضوعية والحيدة والتجرد في تناول النصوص والقضايا وتفعيل المبادئ والمثل .

ويرتكز تقويم الخطاب المؤدلج على مدي القدرة في تمييز ملامحه ، وتحديد زاوية ميله عن السمات العلمية والمنهجية ، وهو ما يتطلب التفرقة بين العلمية والأدلجة ابتداء كشرط سابق لإمكانية الكشف والتقويم .

( ولا ريب والأمر كذلك أن يكون للأيديولوجيا تأثيرها البارز في العلوم الإنسانية الذي لا يسهل عزله ودرسه على حدة لأنه تأثير يتسلل خفية وبلا وعي في الكثير من الاحيان ، متسربلاً في مصطلحات علمية أخّاذة ، ورغم أن كلا من الإيديولوجيا والعلم يخضعان لقوانين مختلفة من حيث الطابع والنوع ، وهذا هو ما يفسر لنا تناقض الإيديولوجيات ونزاعها الدائم . فالعلم يخضع أو ينبغي له أن يخضع لمطلب التفكير السليم ، متحرراً من القيود في اختيار موضوعاته وفي مناهجه وأساليبه ، ويلتزم بالمناقشة والنقد اللذن لا يتقرران إلا من وجهات نظر علمية ، ويتوصل إلى إقامة النظريات التي تظل بدورها خاضعة لمزيد من الفحص والتمحيص .

كما أن القضايا العلمية التي لا تستند إلا إلى البينات والشواهد والبراهين وليس فيها من الحقائق ما يتحول إلى ضرب من الإيمان , " أما الخطابات المؤدلجة كما يقول " كولاكوفسكي "ـ فإنها على النقيض من ذلك لا تمارس نفوذها وحتى عندما تعمل على صعيد الأساليب الفكرية المحضة ، عن طريق الأسباب العقلية ، بل بواسطة الشعارات ومن خلال مخاطبة العواطف ومناشدة السلطات والتقاليد ، وعلى الرغبات والاحكام المسبقة ، والخرافات ، ومشاعر الحقد والخصومة " ( قنصوة . صلاح : 2007 . ص64 ).

إن هذا يؤكد على وجوب تحليل الخطاب وتتبع الملامح الإيديولوجية في طياته ودوافعه ومراميه ، ومهما اتشح الخطاب بدعوي العلمية فإنه من الممكن رصد مكامن الأدلجة المتمثلة في الطابع المتشدد ، الانفعال العاطفي ، والدعوة للانتماء باعتباره واجبا ، والشمولية في التفسير ، والتعبئة وتحريك الجمهور، والتركيز على مناشدة العاطفة لا العقل ، والتصنيف على اساس الولاء للأفكار ، والتحيز والتعصب ، ووهم امتلاك المعرفة ، واختزال الحقائق الكبري والمبادئ العليا في مقولة إيديولوجية مبتسرة تشويهية .

**المبحث الرابع : الخطاب الديني الدعوي نموذجا تطبيقيا .**

تركز هذه النقطة البحثية على معرفة الكيفية التي تلتبس بها الإيديولوجيا بالدين , وفهم حقيقة تحول النص المقدس في الخطاب المؤدلج إلى معرفة إيديولوجية , كما تركز على التعرف ملامح الخطاب المؤدلج .

**التباس الإيديولوجيا بالدين**

تؤدي الإيديولوجيا في الخطاب الدعوي وظائفها العامة التي ذكرها " بول ريكور " والتي سبق سردها فهي تقوم بدور تشويه الآخر وتبرير مقولاتها والدمج والاستقطاب.

ومعلوم انه في " اللحظة التي يلتقي فيها الدين بالأيديولوجيا، نجدنا أمام مشهد مثير يظهر فيه الدين على صورة حادث تاريخي، وقد اتخذ لنفسه لوناً ولغة وثقافة بعدما تحيَّز في جغرافيته الحضارية. وفي هذه الحال، سوف يستوي الكلام على الدين والإيديولوجيا تحت عناوين إدماجية من قبيل: «إيديولوجيا دينية» حيناً، أو «تديُّن إيديولوجي» حيناً آخر، أو غالباً ما يظهر عن طريق السؤال الشائع: لماذا وكيف وضمن أي شروط يتحول الدين إلى إيديولوجيا" ( محمود حيدر. مقالة : عندما تلتبس الإيديولوجيا بالدين ) ؟

يمثل النص المقدس حقيقة الدين ، وفي الإسلام الوحي الإلهي نص متعال مقدس فوقي كلي ، وتقوم مقاربة هذا النص لفهمه وتنزيله في واقع الحياة على استعمال أدوات كثيره منها اللغة وأصول التفسير ومعرفة الناسخ والمنسوخ وغير ذلك . إلا أن ناتج هذه المقاربة يبقى في حيز الاجتهاد ولا يأخذ صفة القطعية أو الكلية أو القدسية

إذا كانت المعارف الناتجة عن النص المقدس تتمايز فيما بينها بطبيعة الناظر فيها ، ونوعية اهتماماته بالمشكلات ، وتراتب القيم لديه ، وحقيقة ما يعانيه من أفكار ، وتلك المعاناة التي تنشأ عن قناعاته وتوجهاته وميوله . وعند هذا الحد من الاختلافات فيما بين الدارسين للشريعة تظهر مدارس مختلفة وآراء متباينة لكنها في مجموعها أقل من أن تثبت امام النقد والمراجعة إلا أن تكتسي بطابع أيديولوجي يجعلها عصية على النقد والمراجعة .

وإذا كان كل ناظر في النص المقدس يؤسس لقاعدته المعرفية على أساس سعة علمه ومقدار إلمامه بمتطلبات التناول من علوم الشرع ومعطيات الواقع , ومحددات انتباهه للمشكلات المحيطة والأسئلة المثارة , ومقدار ما يوليه من قيمة لأركان الدين وأصول الشريعة فإنه ووفقا لذلك سوف ينتج خطابا متأثر . " و لهذا ميّز العلماء بين الدين والمعرفة الدينية. وقد جرى ذلك في الغالب، على قاعدة علمية معاصرة قوامها: «أن كل نظرية إبستمولوجية واقعية تقرر التمييز بين الشيء وبين العلم بالشيء».

إنّ هذا التمييز بين الدين وفهم الدين، سوف يفضي إلى إقامة المعرفة الدينية التي ينتجها الفقهاء والدعاة، في الغالب، على صفة كونها المعادل المنطقي للإيديولوجي. وبهذا تكون الإيديولوجيا بالنسبة إلى النص الديني التأسيسي، معرفة دينية من الدرجة الأولى، لكون مهمتها تفسير، وتأويل، وإعادة إنتاج الأفهام المطلوبة للنص المؤسِّس " ( محمود حيدر. مقالة : عندما تلتبس الإيديولوجيا بالدين ) .

**النص الديني المقدس وأدلجة المعرفة الدينية**

النص الديني له صفة القدسية ويوجب على المؤمنين به الإذعان والتسليم ، لكن هذا النص صامت يتكلم من خلال مقاربته ودراسته " وفي هذا الطور لا يعود الدين بما هو دين حاضراً إلاّ في النص، أي في فضاء المقدس الذي يعلن عن نفسه بكلمات الوحي. غير أن النص الذي تصوّره البعض صامتاً، لا يفتأ حتى يغادر صَمْتَه في اللحظة التي يحلّ فيها على الزمن البشري، حيث يروح الناس يسائلونه، ويبحثون فيه عما يتوقعونه منه. فالنص الصامت يتكلم بالواسطة، على ما يقول هؤلاء. بحيث يبقى المقدس واحداً في ذاته، لكنه يتكاثّر ويتعَّدد ويتنوَّع ، بحسب كل تفسير يُقبل عليه؛ إمّا ليتخذه سبيلاً إلى النجاة، أو ليسائله على سبيل التعرُّف والاستقراء" ( محمود حيدر. مقالة : عندما تلتبس الإيديولوجيا بالدين ) .

وتكمن القضية في أننا لا نستطيع إنزال نص الوحي المقدس ليصبح فاعلا في الزمني النسبي إلا من خلال هذه المقاربة التفسيرية التأويلية ، ولا محيص عن تلك المقاربة التي تتعدد عبر الأزمان وتتنوع في الزمن الواحد بحسب العقول والأفهام ، والواقع بملابساته .

ومن ثم فإننا أمام نص واحد ومعرفة ناتجة عن هذا النص تتكاثر وتتنوع وتختلف فيما بينها لدرجة التعارض أحيانا ، وأمام هذه المعارف المتكاثرة بمداومة النظر في المقدس لابد من ضبط هذا الناتج المعرفي ليبقى في دائرة الاجتهاد والنسبي ، ولا يأخذ صفة المقدس وموجباته ، ولا يقوم بديلا عنه أو ظلا له ، بل يظل المقدس سيالا بتعدد تناوله والنظر فيه ، وإلا فنحن على أعتاب أدلجة الدين .

ولقد أدى غياب الحدود الفاصلة بين الدين والخطاب الديني المؤدلج ، وبالتالي بين المقدس وإيديولوجية المقدس، إلى جعل الثانية، أي إيديولوجية المقدس، الوعاء الذي يحتوي الأول ويؤوِّلُهُ وفقاً لشروطه المعرفية " في النتيجة، يصبح الخطاب المؤدلج أقرب إلى اعتباره «ديناً» من الدرجة الثانية؛ بل أحياناً يجري التعامل معه كشريعة كاملة، وإن لم تظهر هذه الدعوي إلى العلن بخطاب صريح. ذلك ما أسَّس له مفكرون، وفقهاء، ومتكلمون معاصرون وغير معاصرين، عندما حجبوا العلامات الفارقة بين الدين والفكر الديني" ( محمود حيدر. مقالة : عندما تلتبس الإيديولوجيا بالدين ) .

بمعنى أنه متى ظلت المعرفة الدينية اجتهادا وفكرا وقدمت نفسها كناتج للنظر في المقدس دون أن تأخذ صفته وحكمه فإننا أمام إسهام يحقق ثراء للفكر والفقه ، غير أن ذلك بعيد المنال عندما تتحكم الإيديولوجيا في منهج الفكر والنظر ، حيث تغيب الحدود الفاصلة بين المقدس وناتج مقاربته والنظر فيه . وعندئذ بالإمكان أن نرصد التحول الإيديولوجي للمعرفة الدينية ، وحينما تدعي تلك المعارف ما ليس لها من قدسية وتتناسي نسبيتها وكونها تراكمية تطورية عاجزه عن حد اليقين ولا تمتلك الإحاطة التي تضمن لها قبولا وتصالحا عليها ، وعندما تتأبى على النقد وتستنكف عن المراجعة .

وإذا كان ينظر للإيديولوجيا على أنها المتخيل ، الـ " منعكسات " و " الأصداء " لعملية الحياة الواقعية فإنه على مستوي الخطاب المؤدلج يصبح التخيلات الناتجة عن مقاربة النص وتأويله إيديولوجيا مغلقة تجعل من منعكسات النص وأصدائه في العقل بديلا عنه أو قائما مقامه .

**ملامح الخطاب الدينى الدعوي المؤدلج**

تظهر ملامح الأدلجة في الخطاب الديني من خلال تلك الوظائف التي ذكرها "بول ريكور" فنعثر عليها كأهم محددات الأدلجة والتي من خلالها يتحول الخطاب من معرفة دينية اجتهادية إلى عقيدة نهائية كلية ، متشبعة بحصانة إيديولوحية تضيف لهذه المعارف أبعاداً جديدة خارجة عن المعرفة في ذاتها تعمل على تقوية نفوذها وضمان ذيوعها ، وتأتي ملامح تلك الأدلجة على النحو التالي :

**تشويه المخالف :**

الخطابات الدعوية التي تعتمد في انتشارها على تشويه كل ما يخالف اجتهادها وآراءها وتكيل له التهم جزافا ، وتحرص على إنزاله موقعا يزيحه من المشهد الدعوي هى تلك الخطابات التي نقصدها بأنها مؤدلجة ، ولعل أكثر ما يجعلها كذلك هو ضعفها الشديد وعدم قدرتها على تحمل النقد أو عجزها عن التواجد بين خطابات مخالفة .

وتجد تلك الخطابات قوتها في التسربل بوضع أيديولوجي ، تظهر من خلاله على صورة قوالب وأنماط جامدة ، ومقولات جاهزة ، وتطرح قضايا بعينها ، وتثير إشكاليات محددة كل ذلك في إطار يجعل من الخطابات المخالفة حالة مشوهة ، وذلك بغية ضمان عدم المزاحمة .

ويثير مفهوم الإيديولوجيا باعتبارها تشويها الأسئلة حول الاستقلالية الذاتية التي منحت لمنتجات الوعي ، يأخذنا هذا إلى عملية التشويه للواقع والنص والتي تتأثر بها الذات بحيث تفقد استقلاليتها ، إذن التشويه هو التشخيص المناسب للأيديولوجيا عندما تدعي التمثيلات والتأويلات لنفسها الاستقلال الذاتي .

وبتطبيق ذلك على الخطاب الديني فإن دعوي استقلال مقاربة النص ودراسته بدون تحيزات مسبقة وتأثيرات مؤدلجة تكون خادعة عندما تتضمن نتيجة النظر حموله إيديولوجية تتمثل حصر الحق في الاجتهاد واعتباره بديلا للمقدس أو وحده المعبر عنه , وتشويه الرأي المخالف ودمغ كل ما لا ينتظم في دائرة الخطاب المؤدلج بالبطلان .

**فائض القيمة لتعزيز نقص القناعة :**

تمثل الإيديولوجيا القيمة المضافة لتعويض نقص القناعة بشئ ، والخطاب المؤدلج في ميدان الدعوة الإسلامية يقوم بهذه الوظيفة فيعوض نقص القناعة باتجاه أو فتوي او حكم بأشياء خارجة عن حقيقة الأمر ومضمونه إلى مقولات عامة موظفة لتعويض نقص القناعة .

فبدلا من مناقشة قضية مثل تجريد المتابعة للسنة النبوية المطهرة بصورة علمية نفهم من خلالها أبعاد وشروط تجريد المتابعة ومعايير المخالفة التي لا تعد مناقضة للمتابعة ، وحقيقة المتابعة هل هي متابعة للنص أم متابعة للمقصد ؟ وإلى أي مدي تم توظيف النصوص المتعاضدة فيما بينها والمترابطة في غاياتها حاضرة في سياق متصل ؟ . فبدلا من ذلك يصبح الخطاب المؤدلج يتكلم بعموم المتابعة والتاسي ويطبق ذاك العموم في قضايا تفصيلية ينقصها قدر كبير من القناعة فيعمل الخطاب الدعوي المؤدلج على سد هذه الفجوة العلمية باتهامات وتشويه للخصم .

ودائما ما نجد الخطاب الدعوي المؤدلج يعتمد على قاعدة عامة غير مختلف فيها فيسقطها اسقاطا متعسفا يخدم بها توجهاته ، فقد تواجه الأبحاث العلمية والفقهية في قضية كتلك التي ذكرت في تجريد المتابعة عند نقطة ما لا تروق للخطاب المؤدلج بآية قرآنية يستدل بها في غير موضعها كقوله تعالي ( وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضي الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ) الأحزاب : الآية( 36 )

والحقيقة أنه مع الإيمان المطلق بقطعية الآية ثبوتاً ودلالة ، إلا أنه لا تناقض مطلقا بينها وبين بحث قضية التأسي والمتابعة من حيث مدلولها وتفصيلاتها التي سبق وألمحت عنها .

ويندرج كل ما سبق تحت ما يسمي بفائض القيمة لسد العجز ، فالعجز عن التناول العلمي والقناعة المتحررة من الميول والأحكام المسبقة يعوضه التوجه الإيديولوجي المتمرس بمقولات صحيحة في عمومها باطلة في اسقاطاتها .

**خلط المقدس بالبشري**

لا تتحول الاتجاهات اللاهوتية والمذاهب الفقهية إلى أيديولوجية اختزالية ضيقة ومتصلبة إلا من خلال خلط الإلهي بالبشري والمقدس بالمدنس والدين بالتجربة الدينية والنص المطلق اللامتناهي بالنسبي المتناهي، والله في الإنسان، على الرغم من أن الاتجاهات اللاهوتية الكلامية أو الفقهية هي نتاج العقل البشري فهماً وتفسيراً وتأويلاً للنص الديني، وليست هي الدين الذي هو أرحب وأشمل وأوسع من الأيديولوجيات التي هي مظهر وتعبير اجتماعي وسياسي وثقافي وحضاري وإنساني للدين

لطالما أقحم الدين في مجالات كثيرة في الحياة واستغلت نصوصه المقدسة لتسويغ التصرفات والسلوكيات كلها التي انحرفت عن خط المقدس او التي تريد أن تضفي قداسة وشرعية لتجربتها الدينية والاجتماعية والسياسية لتوحي للآخرين بأن فهمها وتمثلها للمقدس هو جزء منه بل هو مقدس ثان يجب الاعتراف به ولا يجوز إنكاره أو رده كما لا يجوز الاعتراض على المقدس ذاته وإن من أكثر الحقول التي ى جري فيها استغلال الدين وتوظيفه لخدمة المآرب البشرية هو الحقل السياسى

إذاً لمواجهة إشكالية أدلجة الدين يجب تأكيد أن الدين ـ وهنا نقصد الإسلام ـ لا تمثله حركة أو جماعة أو تيار إسلامي ما ، مهما قدم من أدلة او رفع من شعارات ومهما كان لهذه الإيديولوجية الدينية من رصيد نضالي وثورى فهذا لا يخولها ادعاء تمثيل المقدس أو النيابة عن الله أو النطق باسم السماء لأنها في النهاية أيديولوجية بشرية غير مقدسة لابد من تأكيد ضرورة تحرير المقدس من هيمنة الأيديولوجيا ورؤيتها الضيقة في بناء الذات والمجتمع .

**دعوى التمثيل الحصري للدين :**

يتبلور منطق الخطاب المؤدلج في كونه رؤية لاهوتية وفقهية تزعم امتلاك اليقين وبلوغ حد الكمال الذى يؤدي في نهاية المطاف إلى احتكار الحقيقة او ما يمكن وصفه بانها وكالة عن الله وانه الممثل الحصري للنص تفسيرا وتأويلا , ومن ثم فلا مجال للمخالف ولا تكامل بينه وبين خطابات أخري لا تنضوي في سياقة .

إن هاجس الخطاب المؤدلج هو إثبات حقانية مقولاته الاعتقادية وحصر الحق فيها، والمحاججة لدحض الحق والحقانية عما سواها. وتشكل هذه المقولات بمجموعها منظومة اعتقادية واضحة الحدود، على نحو يمكن الاستناد فيه إليها بوصفها معياراً للتعرف إلى كل ما يقع داخلها، ونفي كل ما يقع خارجها ( مرصد الشرق الاوسط . مقالة : اختزال الدين في الإيديولوجيا ).

ومثل هذا الزعم بانحصار الحق في الخطاب المؤدلح وانحساره عما يقع خارجة لا يستقيم باعتباره اختزالا للدين واحتكارا للحقيقة . ولكي يمضى هذا الزعم الإيديولوجي يلزمه قدراً من المشروعية النصية ، هنالك يلجأ الخطاب إلى بعض النصوص القرآنية والحديثية ليحقق من خلال انتقائيتها وتأويلها ولىّ أعناقها هذه المشروعية . وهذا يفسر كون الخطاب المؤدلج يتمحور حول عدة نصوص مؤسسة يجد فيها ملاذه ويستنطقها في كافة الاتجاهات ليعضد اركانه. ويسحب كافة المناقشات والحوارات بل والنصوص الأخرى داخل نصوصه بتأويلاتها المؤدلجة .

الخاتمة

بعد هذا العرض الذى قدمته هذه الورقة البحثية للخطاب الديني المؤدلج من حيث وظائفه وملامحه وآلية نقده يكون البحث قد حاول الإسهام المتواضع في بلورة اتجاه نقدي يضبط الدعاوى الزائفة والآفات الفكرية التي يلتئم عليها الخطاب ويأخذنا بعيدا عن الجادة .

ولا شك أنها محاولة متواضعة في ذاتها ، وإن كانت مهمة في اتجاهها لما تلفت الانتباه لموضوع غاية في الضرورة ، حيث يجب أن تتوالى الأبحاث التي تنشغل بالخطاب الديني من كافة زواياه وابعاده ومختلف مناشطه وتوجهاته , وتقديم أبحاث دراسية لها القدرة على التحليل والتركيب ومن ثم نتائج علمية ضابطة للتوجه والاداء والاهداف والغايات .

وقد اهتمت هذه الورقة البحثية بالتوظيف الأيديولوجي للخطاب واثر ذلك على النص عندما يكون الخطاب دينيا دعويا , حيث يعمل الإيحاءات الإيديولوجية على تمثل النصوص بصورة مشوهة مجتزئة , ثم تجعل من ناتج النظر يقينا يما هي النص ,ومن ثم تتوالى الوظيفية الإيديولوجية للخطاب في التفريق والتمزيق والاتهام .

لذا العمل الدائم المتواصل على نقد الخطاب وتقويمه وفق أسس علمية منهجية هو ما يجب ان يحرص عليه الباحثون والمهتمون بالشأن الدعوي حفظا للنصوص من تأويلات مغلوطة وتفسيرات ضيقة محدودة ودرأً لأى أدلجة قد تلحق هذا الخطاب الدعوي .

أهم التوصيات والنتائج :

1 ـ متابعة الدراسات البحثية في مسألة الخطاب الديني على كافة مستوياته , وتحليل مضمونه الفكري وتمثلاته الذهنية ومدى صحة تصوراته للواقع .

2 ـ وضع حدود فاصلة واضحة المعالم بين ما يحمله الخطاب من علمية منهجية وما ينطوي عليه من تأثرات إيديولوجية متخفية ومتوارية في مقولات نمطية مغلقة لا تعبر عن حقائق النص السيال بالمعاني .

3 ـ اتباع منهجية نقدية في تحديد الخطابات المؤدلجة على الساحة الدعوية من خلال البعد الوظيفي ـ فمتى كان تشويهياً تبريرياً يرتكز على لحظة بعينها أو حدث ضيق ليحد به فسيح النص ويغلق مجالات المقاصد كان مؤدلجا وفي اللحظة يجب كشف الأيديولوجيا التي ينتمي إليها والمصالح التي يرعاها باسم النص الديني المقدس .

4 ـ التدقيق عند مراقبة الخطاب الدعوي على الإيحاءات الغير مرتبطة بالنص ولا بمعانية الثانية ( المنطوق ـ المفهوم ) ، ( العبارة ـ الإشارة ) بل تلك الإيحاءات المرتبطة ببعد إيديولوجي يأسر الخطاب في دائرته .

5 ـ تحديد أسلوب ووسيلة ومنهج تمثيل الواقع في منطق الخطاب والاطمئنان إلى ان التمثلات التي يحويها الخطاب عن الواقع صحيحة غير منحرفة ولا متاثر بأنظمة دلالة وأدوات تمثيل تحول بين انتقال الخطاب إلى العقل ومن ثم الخطاب انتقالاً صحيحاً .

المصادر :

 0 القرآن الكريم

1 ـ ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم لسان العرب دار صادر بيروت .

2 ـ أندرو هيود مدخل إلى الأيديولوجيات السياسية ، المركز القومي للترجمة ، الطبعة الأولي 2012 .

 3 ـ باريون ياكوب : ما هي الإيديولوجيا، ترجمة أسعد رزق، الدار العلمية، بيروت، 1971.

 4 . بوقرة . نعمان المصطلحات الاساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب عالم الكتب الحديث ط1 2009 .

 5 ـ بول ريكور محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا ترجمة : رحيم فلاك دار الكتاب الجديد المتحدة الطبعة الأولى 2002 .

 5 ـ ديفيد هوكس الإيديولوجيا ترجمة : إبراهيم فتحي المشروع القومي للترجمة ـ القاهرة المجلس الأعلى للثقافة . 2000 ,

 6 ـ عبدالجواد. رزق الإيديولوجيا ماهيتها وموقف ما بعد الحداثة تجاهها رؤية ثقافية واداة تفسيرية المجلة الليبية العالمية العدد: 60 , يونيو/ 2022 .

 7 ـ وسيلة يعيش تدريس علم الاجتماع بين العلوم والإيديولوجي جامعة متوري ـ قسنطينة اطروحة ماجستير 2001 .

 8 ـ عبدالستارعز الدي الراوي الإيديولوجيا والأساطير " ولاية الفقية والفكر الصهيوني المعاصر الطبعة الأولى 1988 وزارة الثفافة والإعلام ـ بغداد .عبدالسلام بنعيد العالي ت محمد سبيلا دفاتر فلسفية " الإيديولوجيا " العدد : 8 دار توبقال للنشر ـ الدار البيضاء 2006 .

 9 ـ عبدالله العروي مفهوم الإيديولوجيا المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ـ المغرب الطبعة الثامنة 2012 .

 10 ـ قنصوة . صلاح : الموضوعية في العلوم الإنسانية عرض نقدي لمناهج البحث - دار التنوير للطباعة والنشر2007 ,

 11 ـ كارل مانهايم " الإيديولوجيا الطوباوية " الترجمة الفرنسية ب , رولي ـ مكتبة رفيير ، 1956

 12 ـ كاترين أوريكيوني الإيحاء والإيديولوجيا ترجمة : أحمد الفوجي مجلة علامات .

 ـ 13 . James Burnham : Suicide of the west (An Essay on the Meaning And Destiny of Liberalism), Jonathan Cape, London, 1965

14 . Louis Althusser Pour Marx, F.M. Paris, 1972.

**المقالات :**

الحارثي . صحيفة الشرق الأوسط الألكترونية مقالة المؤدلج الوصاية والحقيقة المطلقة زهير الحارثي

https/aawsat.com/home/article/3035106

الحسين . محمد عبدالله مقالة : تمثلات الإيديولوجيا والأسطورة مقالة الحوار المتمدن

www/ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=673789

السعودي . عبدالله التفكير المؤدلج موقع الجزيرة الثقافية العدد 341

[www.al-jazirah.com/culture/2011/12052011/fadaat19,htm](http://www.al-jazirah.com/culture/2011/12052011/fadaat19%2Chtm)

* حيدر . محمود مقالة : عندما تلتبس الإيديولوجيا بالدين مجلة البيان

www/albayan.ae/articles/2012-05-28-1.1657937

ريكور بول مقالة : الإيديولوحيا والوهم تحليل نص بول ريكور موقع : المدرس الرقمي .

* www/almodarse.com/2023/11/idoilgoalwahem.html

سوسان إلياس مقالة : المثول ( التمثيل ) Representation الموسوعة العربية

https//arab-ency.cpm.sy/ency/details/10659/17

* ( مرصد الشرق الاوسط . مقالة : اختزال الدين في الإيديولوجيا ).

 **الهوامش**

1. يري الباحث السياسي البريطاني ديفيد ماكليلان ( David Mclellan ) أن الإيديولوجيا هى أكثر المفاهيم مراوغة فى العلوم الإنسانية بأكملها . انظر أندرو هيود مدخل إلى الأيديولوجيات السياسية ، المركز القومي للترجمة ، الطبعة الأولي 2012 ص 14 . [↑](#footnote-ref-1)
2. وفى معلقة طرفة ين العبد يقول :

 تباري عتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفا وظيفا فوق مور معبد

 الوظيف ما بين الرسغ غلى الركبة والمعني تتبع وظيف رجلها وظيف يدها وهو مستحب من الناقة أن تضع رجلها موضع يدها. [↑](#footnote-ref-2)
3. جاء اختيار هذه التعريف من بين كافة التعريفات المتعددة لكونه أقرب لغرض البحث الذى يسلط الضوء على بعد وظيفي في الإيديولوجيا ، ويظهر أشد خصائصها اثرا كونها تقوم على وهم امتلاك الحقيقة المطلقة . [↑](#footnote-ref-3)
4. بول ريكور فيلسوف فرنسي معاصر من فلاسفة القرن العشرين , عاش بين سنة 1913 وسنة 2005 من مؤلفاته فلسفة الإرادة التاريخ والحقية من النص إلى الفعل . [www.philoclub.net](http://www.philoclub.net) تحليل نص بول ريكور الإيديولوجيا والوهم . [↑](#endnote-ref-1)
5. تختلف نظرية الإدراك التمثيلي عن نظرية الإدراك المباشر ، وتختلف في بعض جوانبها عما يعرف عند ديكارت بنظرية الافكار التمثيلية ومفادها أنه لا يمك إدراك الموضوعات المادية مباشرة ، وما يتم إدراكه هو شئ إما عقلي وإما أن يكون معتمدا على العقل ( معطيات الحس ) أى مثال الشئ في العقل ، أو بتعبير أحدث تمثلاتها في العقل ، وهى بنظر ديكارت ناشئة عن الأشياء لكنها ليست مشابهة لها ،وهذه النظرية كانت الأساس الذى استمدت منه المثالية المطلقة مبادئها . انظر مقالة ( التمثيل )

https//arab-ency.cpm.sy/ency/details/10659/17 [↑](#endnote-ref-2)
6. يرجع تقسيم الإيديولوجيا إلى مفهوم كلي وجزئي إلى كارل مانهايم ويتعلق الأمر بالمعنى الجزئي لتلك الكلمة عندما نشير إلي أننا في ارتياب إزاء الأفكار والتمثلات التي يقدمها الخصم ، حيث نعتبرها تزويرا ، تزداد درجة العلم بها او تقل = للطبيعة الحقيقية لوضع لا يكون لصالح خصما الاعتراف بحقيقته ، وإن هذا التزوير والتشويه يندرج من الكذب الواعي إلى التنكر الذي يكاد يكون خافيا ( سبيلا.محمد , العلي.عبدالسلام : 2006 ص10) [↑](#endnote-ref-3)
7. سوسيولوجيا المعرفة أو النزعة السوسيولوجية Sociologism : هى نظرية تؤكد على إثبات طابع نسبي عبر التاريخ للفكر الاجتماعي والمعرفة . [↑](#endnote-ref-4)